قضايا

لم تحدث النكبة في فلسطين في العام 1948، بل سبقتها تقدمات ونكبات على غير مستوى، بشأن الثقافة والهوية والأرض وأهلها، في محاولات الاستشراق نفي فلسطين مجتمعاً وثقافة، ثم منح الانتداب البريطاني، وهو احتلال مباشر، الأرض إلى المستوطنين، ثم سرقة المحتل الإسرائيلي الممتلكات الثقافية للفلسطينيين. تقدّم هذه الدراسة مطالعة في مسار هذه الممارسات

من الاستشراق وصولاً إلى السرقات واختلاف التاريخ

النكبة الفلسطينية فعلاً ثقافياً [2/1]

عاطف أبو سيف

قبّة الصخرة في القدس المحتلة لغوستاف باورنفيند (Getty)

1

صحيح أنّ النكبة في العام 1948 كانتْ البداية الفعلية لسرقةِ البلاد من الفلسطينيين، عبر محاولةِ اقتلاعهم ومحوهم منها. ولكن النظر إليها يجب أن يكون بوصفها تتويجاً لجهودٍ طويلة من الاقتلاع الثقافي والمعرفي الذي قامتْ به الحركة الصهيونية عقوداً بغية التمهيد لجعلِ العالم يتقبّل فكرة طرد الفلسطينيين من بلادهم، ولجعل عمليات الاقتلاع هذه تحقيقاً لوعدٍ ولحظةٍ منتظرة، بل طال انتظارها. لقد تمّ استلاب فلسطين وسرقتها على مستوى الفكرة والرواية قبل ترجمتها على المستويين العسكري والمادي.

لقد جرتْ سرقة فلسطين فعلياً ثقافياً و«تنكيبها» في السياق التاريخي قبل سرقتها فعلياً خلال النكبة. وجرى هذا قبل عقود طويلة من وقوع النكبة، وعبر سلسلةٍ طويلةٍ لم تنته حتى اللحظة من إخراج فلسطين جغرافياً، والفلسطينيين سكاناً للبلاد، من سياق المرويّات والسرديّات التاريخية عن المنطقة، وتقديم الشواهد التي لا تشهد على الحقيقة، بل عمّا يُراد لهذه الحقيقة أن تكونه. جرى نفينا، نحن الفلسطينيين، خارج الوعي العام لمسارِ التاريخ. تمّت الاستعانة باللاهوت والدين، كما بالسرديّات الغربية المختلفة، بغرض تثبيت مقولة إن ثمّة غريباً يسكن مؤقتاً في البلاد التي هي ليست له، ويجب طرده منها من أجل «عودة الولد المفقود». وخلال ذلك، شكلت المرجعية التوراتية العامة إطاراً لتدعيم ادّعاء ملكية الوطن القديم الذي يسكنه الغرباء، وضرورة العودة إليه، وتعزيزاً لفكرة أنّ الرابط الإلهي لم ينقطع بين شعب الله المختار والأرض المقدّسة. وبكلمةٍ أخرى، ما زال الربّ عند كلمته ووعده. وعلى المؤمنين الحقيقيين، وهنا هم غلاة المتدينين المسيحيين في أوروبا، أن يسعوا من أجل تسريع ذلك. بالطبع، لاعتباراتٍ لاهوتيةٍ مختلفة.

من كبائر الاستشراق

واحدة من أهم كبائر الاستشراق الكثيرة مساهمته الأساسية في ترسيخ الصور النمطية والرسائل المسمومة التي كانت الصهيونية ودعاتها يريدون أن تطغى في الوعي الأوروبي العام. كان الهدف دائماً أن تتعزّز فكرة الأرض التي تنتظر أصحابها مقابل من يسكنها ممّن لا يستحقونها.

لقد تمّ توظيف الاستشراق بشكلٍ مُمنهج لخدمةِ المشروع الاستعماري الغربي، ليس للمنطقة العربية بل للشرق برمته، وعكست الكتابات الغربية كما التصوير الغربي لمناطق الشرق عن هذه التوجّهات من خلال تقديم الشرق المتخلّف الهمجي الذي يعيش حياة بدائية في أرضٍ غنيّة ساحرة، تنتظرُ قدوم مواكب الحضارة الغربية لإعادتها إلى لحظتها الحقيقية. والمؤكّد أنّ النظرة نفسها يمكن بالقياس سحبها على مجمل التخيّلات والصور التي تمّ تقديمها عن مناطق مختلفة أخرى غير الشرق، مثل أفريقيا، حيث لا بدّ للفن والثقافة أن يدعما توجّهات المستعمر ويقدّما شرعية لما يقوم به.

كانت المهمّة في فلسطين مركّبة وأكثر تعقيداً. وربّما مع هذا أكثر سهولةً لارتباطها بالدين. فإلى جانب المهمات التقليدية للاستشراق، كانت الغاية الكبرى والمقصودة أن يتم تقديم الأرض المقدّسة كأرض تنتظر أصحابها، وعليه يجب تهويم، أو ربّما تبهيت صورة الحضور الفلسطيني في البلاد المقدّسة. في هذا السياق تمّ في معظم الحالات رسم المكان شبه فارغ والإنسان هشاً بائساً. لننظر لمثالين معروفين في التصوير والرسم خلال القرن التاسع عشر.

تبدو لوحات غوستاف باورنفيند مثالاً واضحاً على ذلك. بالكاد يمكن للمرء أن يرى في لوحات باورنفايند وجهَ الفلسطيني، فهو مشوّش ويتم رسمه من بعيد. إنّه ظلال لشيءٍ موجود في الصورة، ولكن لا معالم ولا تفاصيل. حتى المكان ليس أكثر وضوحاً. مثلاً، رغم ما تمتّعت به يافا من مكانةٍ كبرى، وكانت من أكثر المدن العربية في ذلك الوقت تقدّماً، فإنّ الصور التي يقدّمها باورنفايند ليافا في لوحاته المختلفة صورة استشراقية باهتة. في لوحته ميناء يافا، يجلسُ الرجال على الأرض بشكلٍ بائس، وثمّة حيوان جائع. كلّ شيءٍ يثيرُ الشفقة. حتى حين يرسم العمارة الفلسطينية في يافا فإنه يجنح إلى التخلّي عن شغفه بتفاصيل العمارة العربية، كما في أماكن أخرى مثل دمشق، ويكتفي بإطارٍ أزرق كديكور وتزيين في أعلى البناية البائسة. كذلك الأمر في لوحته عن يافا التي يصوّر فيها وداع الأهل أبناءهم الذاهبين إلى القتال في صفوف القوات العثمانية. لا ملامح. لا وجوه، وثمّة اندفاع همجي غير منظّم للناس في الميناء. حتى إنّ باورنفايند في إحدى رسائله يقول «لا يوجد خلفيات معمارية مثيرة للاهتمام»، وهو الذي أمضى وقتاً كثيراً في يافا خلال رحلته الثانية 1884-1887. في المجمل، لوحاته معتمة تخلو من الضوء. وربّما فقط في لوحته الطريق إلى جبل الهيكل التي تصوّر مدخل الحرم القدسي وقبّة الصخرة من جهة «باب القطانين». تبدو التفاصيل مثيرة وجذّابة ودقيقة بشكل ملفت، وهو لا يرسم اللوحة لنا ولا لتمجيد مكاننا المقدس، بل من أجل أن يكشف ما ينتظر اليهود العائدين من بهاءٍ وضوءٍ سماوي. وللمفارقة، حين نعلّق، نحن الفلسطينيين، اللوحة في بيوتنا ومؤسّساتنا نكتب عليها الطريق إلى قبّة الصخرة، فيما يعنونها باورنفايند «الطريق إلى جبل الهيكل». ببساطة، لم تُرسم اللوحة من أجل تمجيد المكان الفلسطيني، بل من أجل تصوير ما ينتظر اليهودي العائد إلى البلاد من زخرفةٍ مكانه المقدّس.

وربما الأكثر وضوحاً ما يكتبه باورنفايند تعليقاً على لوحاته، فالعبارات التي يكتبها تكشف المعنى الحقيقي وراء الرسومات. لنقرأ ماذا يقول في إحدى رسائله عن مقاصده من لوحته المُشار إليها آنفاً. كانت الفكرة تصوير اليهود وهم يدخلون جبل الهيكل، حيث نجد في اللوحةِ مجموعة من اليهود عند البوابة يمدّون رؤوسهم قليلاً إلى الأمام، وهم ينظرون إلى الفردوس المشمس في الداخل بقبابه اللامعة وبلاطه الملوّن وجدرانه الرخامية التي شكلت ذات يوم أقدس مزاراتهم القومية، فيما يجلس اليوم أمام تلك البوابة رجل يحمل سيفاً بيده ويغلق البوابة، كما يقول باورنفايند، «كنت سأسميه تقريباً حارس الهيكل، ويمنعهم من الدخول إليها». انظروا كيف يتحسّر أنّ الذي يحرس الحرم الشريف شخص عربي، وليس حارس الهيكل المزعوم.

صورة غزّة لروبرتس ديفيس التي يعلّقها فلسطينيون كثيرون في بيوتهم أيضاً تتم في النسق نفسه، فغزّة بائسة شاحبة متهالكة، وهي ليست أكثر من ظلالٍ لمدينة باهتة. لا شيء جذّاباً في الصورة. مجموعة من الرجال رثّي الثياب يجلسون على ركامٍ آثار مهدّمة ينظرون إلى المدينة التي لا يبدو منها إلا مآذن مساجد لا يجري تصويرها بشكل جمالي حتى. يتجلّى الشيء نفسه في لوحاته المختلفة عن بقية المدن الفلسطينية الأخرى. علينا ألّا ننظر بتساهل إلى هذا كلّه، لأنّه كان يتم ضمن فهم خاص للدور وللوسيلة التي يتم فيها هذا التوظيف.

> تمّ توظيف الاستشراق بشكل مُمنهج لخدمةً المشروع الاستعَماري الغربي، ليس للمنطقة العربية بل للشرق برمته

> في صورة غزّة لروبرتس ديفيس، تظهر المدينة بائسة شاحبة متهالكة، وهي ليست أكثر من ظلالٍ لمدينة باهتة

> جرت الصناعة الثقافية لفكرة النكبة باحتراف، وكانت الشرشف الأنيق الذي غطّى طاولة الأفكار القذرة

اللعب في التاريخ

دأبتْ الصهيونية وقبلها اليهود من خلال نفوذهم المهيمن في الثقافة الغربية على تغيير المفاهيم الكبيرة في هذه الثقافة، حتى تلائم التوجّهات الدينية والسياسية وتخدمها لرغبةِ اليهود في الاستيلاء على فلسطين. ورغم التشابك والتداخل بين الديانات السماوية بوصفها ديانات توحيدية، فإنّ استناد بعض الطوائف المسيحية على العهد القديم كجزء من المعتقد الديني ساهم أيضاً في ترك مساحة واسعة للتأثير على أتباع هذه الطوائف. ولكن، بشكلٍ عام، قصّة الوجود اليهودي في فلسطين والصراع الدموي مع الفلسطينيين ومع الكنعانيين، هيّأ ذلك كلّه الظروف من أجل ترتيب روايةٍ سياسيةٍ معاصرةٍ تصلح لأن تكون سبباً من وجهةِ نظرٍ غير أخلاقية في نكبةِ شعبٍ وسرقةِ بلاده منه.

وبغضّ النظرِ عن الحقيقة التاريخية، لأنّ التاريخ كعلم لم يظهر جليّاً إلا مع تطوّر علم الآثار. وبالتالي، كلّ شيء سابق ليس أكثر من مرويات وحكايات تحتملُ وجه الصدق ووجوه الكذب. والمؤكد أنّه جرى توظيف تلك المرويات في ترجمةِ التوجّهات الدينية التي صارت لها بعد ذلك أهدافاً سياسية واضحة مع عقد المؤتمر الصهيوني الأوّل في بازل عام 1897.

حتى كلمة فلسطين تمّ إدخالها في القاموسين، الألماني والإنكليزي، لوصف الهمجية. والفلسطيني بلفظ البي والأتش (ph)، أي بلفظ الفاء هو الشخص المعادي للثقافة الكاره للأدب غير المقدّر للفنون والهمجي الذي لا يفهم الذوق المعرفي. وكان ماثيو أرنولد أوّل من استخدم اللفظة وجلبها من التداول الفكري الألماني وأدخلها إلى القاموس الإنكليزي في القرن التاسع عشر. وكان هذا في كتابه «الثقافة والفوضى» الصادر في العام 1869. وكان أرنولد يشير في كتابه إلى جهل البرجوازية البريطانية في الفنون. لنقرأ كيف يعرّف قاموس أكسفورد الكلمة «فلسطاين» بالفاء: هو الشخص الذي لا يفهم الفن ولا الأدب ولا الموسيقى ونقول في السياق «إن ذوقه في الفن فلسطاين»، أي هابط. أمّا قاموس كمبردج فيعرّف كلمة فلسطاين بأنّه الشخص الذي يرفض أن يرى الجمال أو القيم الفنية والثقافية. ويقتبس جملة لتوضيح المعنى تقول: لم أتوقّع منهم أن يستمتعوا بفيلم بهذه الجودة، فهم ليسو أكثر من مجموعة من الفلسطاين. وأصل الكلمة هي التوصيف الألماني إذا أطلقت ضمن الصراع الأكاديمي «فلستر» من فلسطيني لوصف الطلبة من الجامعات الأخرى الذي يختلفون معهم، ولتحقيرهم تمّ اختيار الكلمة فلسطيني، في إشارةٍ إلى أعداء اليهود الفلسطينيين، كما في نصوصِ التوراة. ليس هذا اعتباطاً وليس مصادفةً وليس مجرّد خطأ لفظي أو تاريخي.

ومع ذلك، يجب ألا نغفل أنّ بعض الباحثين الغربيين الذين كتبوا عن فلسطين قبل النكبة قدّموا مساهمات جادة تجاه التعريف بالمجتمع الفلسطيني كانت خارج نطاق «مؤامرة» الاستشراق، بل ساهمتْ بشكلٍ مهم في توثيق الحياة في الريف الفلسطيني تحديداً. وهنا أستذكر الباحثة الفنلندية هيلما غرانكفست التي عاشت خلال الانتداب في قرية أرطاس قرب بيت لحم وكتبت كتاباً مهماً حول أحوال الزواج في قرية فلسطينية. والألماني غوستاف دالمان الذي كتب مؤلفاً ضخماً من عشرة أجزاء بعنوان «العمل والعادات والتقاليد في فلسطين»، استغرق تأليفه 14 عاماً هي حصيلة تسعة عشر عاماً أمضاها في فلسطين من العام 1899 حتى 1917. وكلاهما صدرا مترجمَيْن عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

2

مع اكتمال تجهيز الوعي الغربي لفكرة إقامة دولة لليهود على حساب الفلسطينيين، بدأتْ القوى الكبرى التي كانت تتحكّم بأعناق الكوكب وسياساته بالتحضير لتحقيق الوعد المنتظر. فحتى ضمن توزيع تركة الرجل العجوز خلال التحضير للإجهاز على الإمبراطورية العثمانية، كان منح فلسطين لبريطانيا لإدارتها قد تمّت ضمن تفاهم على إيكال مهمّة إنشاء وطني لليهود لها. لذا، لم يكن وعد بلفور المشؤوم إلا ضمن هذا النسق العام لتنفيذ تلك السياسات. تلاقتْ توجّهات مختلفة ساهمت في جعل فكرةِ الوطن القومي اليهودي، أي نكبةَ الفلسطينيين، هدفاً سامياً. للمفارقة، لم يكن بلفور نفسه متعاطفاً مع المسألة اليهودية بلغة هيرتزل، بل ربّما كان كارهاً لليهود، إذ كان يعتقد أنّ وجود هذا الوطن سيخفّف من المآسي الطويلة التي عانت منها الحضارة الغربية نتيجة وجود جسم (يقصد اليهود) طالما كان عدائياً، ولم تتمكّن تلك الحضارة من طرده ولا من استيعابه. ينسحب الأمر على ما يرون في قيام إسرائيل وبناء الهيكل تعجيلاً بالقدوم الثاني للسيد المسيح لهدمه.

جرى التلاعب بالتاريخ من أجل صياغة هذه الحاجة السياسية فيما في الأساس ثمّة دوافع خفيّة وراء كلّ قاصد وراء تحقيق نكبة الفلسطينيين. ومع ذلك، جرت الصناعة الثقافية لفكرة النكبة باحتراف، وكانت الشرشف الأنيق الذي غطّى طاولة الأفكار القذرة.

حدثت عمليات تطهير عرقي ومذابح ومجازر عبر التاريخ، ولا يمكن سرد حكاية البشرية من دون التوقف أمام فظاعةٍ (وبشاعة) حروب كثيرة تشكّل في سرديتها هذه الحكايةَ. ولكن لم يسبق لمثل هذه المجازر وعمليات التطهير العرقي تلك أن كانت جزءاً من خطّة دولية تعمل القوى الكبرى على تنفيذها وتشارك فيها كما حدث في حالة النكبة الفلسطينية. يمكن لنا النظر بوجع وألم إلى ما جرى بحقّ السكان الأصليين في العالم الجديد، وإلى ما جرى من عملياتٍ لا تقلّ بشاعة في القارّة الأفريقية، وكذلك فظائع الحرب العالمية الثانية والمحرقة التي ارتكبها هتلر بحق اليهود. ويمكن استحضار الكثير من النماذج الأخرى في التاريخ الحديث والمعاصر. ولكن لم يكن ثمّة حالة جرى خلالها عقد اجتماعات وإصدار قرارات وتوفير المناخات من أجل تحقيق هذه المذابح بموافقة القوى الكبرى، مثلما حدث في الحالة الفلسطينية. لقد تمّ تشكيل التنظيم الدولي بعد نقاط ولسون الأربع عشرة من أجل أن يكون قادراً على تنفيذ وعد بلفور المشؤوم. كانت المهمّة الأولى لهذا التنظيم الذي فشل حتى في حفظ السلام والاستقرار بين الحربين في القارّة العجوز أن يحقّق الرؤية المشؤومة. بل وصل أمر التجييش الفكري والثقافي في الوعي الغربي إلى أنّ أحزاباً غربية صارت تتبنّى فكرة طرد الفلسطينيين من بلادهم قبل سنوات من وقوع النكبة، مثلاً الحزب الليبرالي البريطانيَ تبنّى في مؤتمره الحزبي عام 1944 فكرةَ طردِ الفلسطينيين من وطنهم. وأظنّ أنّنا بحاجة لمراجعةٍ شاملةٍ لكلّ تلك الأفكار وملاحقة مثل هذه الأحزاب جرّاء ما أوقعوه بحقنا من جرائم. بل إنّ قراءةً في حيثياتِ قرار التقسيم ومداولاته والدول التي صوّتت لصالح القرار وتاريخ منحها الاستقلال والعضوية في الجمعية العامة يمكن أن يقودنا إلى ملاحظاتٍ كثيرة بشأن كيفيةِ إنتاج هذا التنظيم الدولي، من أجل أن يساهم في شرعنة سرقة فلسطين من أصحابها ومنحها لغيرهم. لقد جرى تطوير نظام الانتداب بوصفه وصاية، فيما هو في الحقيقة احتلال ومرحلة أولى من عمليات التطهير العرقي.

(روائي ووزير للثقافة الفلسطينية سابقاً)

أحزاب غربية تتبنّى طرد الفلسطينيين

وصلَ أمر التجييش الفكري والثقافي في الوعي الغربي أنّ أحزاباً غربية صارت تتبنّى فكرة طرد الفلسطينيين من بلادهم قبل سنوات من وقوع النكبة، مثلاً الحزب الليبرالي البريطاني تبنّى في مؤتمره الحزبي عام 1944 فكرة طرد الفلسطينيين من وطنهم. وأظن أنّنا بحاجة لمراجعة شاملة لكلّ تلك الافكار وملاحقة مثل هذه الأحزاب جرّاء ما اوقعوه بحق فلسطين من جرائم. بل إنّ قراءة في حيثيات قرار التقسيم ومداولاته والدول التي صوّتت لصالحه وتاريخ منحها الاستقلال والعضوية في الجمعية العامة يمكن أن يقودنا إلى ملاحظات كثيرة بشأن كيفية إنتاج هذا التنظيم الدولي، من اجل ان يساهم في شرعنة سرقة الأرض من أصحابها ومنحها لغيرهم.